

المرحلة الرابعة / النقد الأدبي الحديث/ الدراسات الصباحية

المحاضرة (8) الأسلوبية محدداتها المنهجية وسماتها

تصنف الأسلوبية ضمن المناهج النقدية النصية، التي تعنى بدراسة النص والاحاطة بسماته التعبيرية، على وفق منهج تحليلي تتجاوز الاطر التقليدية في الدراسة سواء البلاغية ، أم اللغوية الصرف، فضلا عن النقد الانطباعي الذي يحتكم الى الذوق . ولا تقتزن الممارسة النقدية التي تحلل الاسلوب الى معايير مستقرة. وعلى الرغم من تحليلها جزئيات النص الأدبي فإنها لا تقف عند حدود النتائج الجزئية أو الشكلية و انما تتجاوزها الى شمولية الفحص وعمق تصوراتها ..

ولا تنفك الأسلوبية عن التركيز على المعطى اللغوي، بوصفها انبثقت من تطور الدراسات اللسانية، وكرست البحث في اللغة بوصفها أداة للتواصل والتأثير. ولكن ذلك لا يعني أنها تستسلم لحدود الدراسة اللغوية في أطرها الجزئية ومعطائها الاتصالي العام . يجري الناقد الأسلوبي، عملية تحليلية، يتعرف من خلالها على السمات التي تميز النص وفك رموز اللغة فيه، ليكشف عن طاقة الابداع فيه ، التي تعكس فرادة المبدع، وخصوصية أدائه .

ومن مميزات الأسلوبية أنها تخضع لمعايير تحليلية وأدوات تعتمد الرصد الدقيق، لذا تصنف على الدراسات الموضوعية بإزاء المناهج التي تعتمد ميول الذات وتفضيلها من عدمه لوسائل الاداء في النص، فالناقد الاسلوبي لا يركز على ما هو خارج النص من تأثير لحياة الكاتب ولا الظواهر المحيطة به أو عوامل انتاج النص، مثلما لا يتزع الناقد نحو ذاتيته في الممارسة النقدية.

أما عن علاقة الأسلوبية بالدراسات اللغوية، فقد أدى الارتباط التاريخي، بين علم اللغة وعلم الأسلوب - ولاسيما بعد تطور الدراسات الألسنية على يد سوسير- الى أن يصنف بعض مؤرخي النقد الى ادماج أي دراسة ذات نواح لغوية متحققة في الأسلوب ضمن أسلوبية. غير ان هذا الاعتقاد غير مسوغ للفروق الواضحة بين الاسلوبية وعلم اللغة في دراسة النصوص، سواء ما كان منها اتصاليا أم أدبيا . علاقة الأسلوبية بعلم البلاغة :

على الرغم من القرب الوظيفي بين الاسلوبية والبلاغة، ولاسيما في البلاغة العربية، الا ان الاطار المنهجي وأدوات التحليل وطرقه هي الفاصل في التفريق بين الاسلوبية والبلاغة. وعندما نشير الى البلاغة العربية فذلك لا يعني دمجا بين منظومتين قديمة وحديثة، ولا تجاوزا للفروقات الحضارية والعلمية والزمنية التي انتجت كل منهما . وانما يعني أن الوظيفة الاساسية في الكشف عن جماليات النص الأدبي، من نواح ملموسة الأثر ومحدد في الملفوظ اللغوي للنص ميدانا لعمل كل منهما .

أما ما يتعلق بالمنظومة العلمية والنقدية الغربية فقد أوشكت البلاغة القديمة على أن تغادر مسرح التأثير في النقد بعد بزوغ الاسلوبية، إن لم تكن قد تهاوت الى الابد، لذا لا غرابة من عنوانه من عترة بيير جيزوف فصل من فصول كتابه (الاسلوبية) بما يشر الى ذلك إذ كان عنوانه (سقوط البلاغة)، يرى فيه إن البلاغة حرمت من الاسس الميتافيزيقية الجمالية التي كانت تدعمها فسقت في النمطية وصار مجموعة من الوصفات العلمية فقدت أهميتها تدريجيا، وأسهم تطور الأدب في فقدانها مكانتها نتيجة التحولات الفكرية والاجتماعية والسياسية، والقطيعة مع التعليم التقليدي، فضلا انتشار الثقافة الديمقراطية والاتصال بالثقافات والآداب الأجنبية . (الاسلوبية :39)

وثمة جهود نقدية حاوت ايجاد عوامل التقاء وافتراق بين البلاغة والاسلوبية، على نحو عام: عربية وغربية، بعد ان تحولت الاسلوبية في النقد العربي الحديث الى أحد المناهج المعتمدة في الكشف عن جماليات النث الادبي وخصوصية طرق انشائه .

أوجه الاتفاق بين البلاغة والأسلوب:

ثمة أوجه اتفاق واضحة بين علم الأسلوب وعلم البلاغة، منشؤها الاشتراك في النواحي اللغوية لتحديد الجمالي للتعبير في النص الادبي أهمها :

- 1- يقتزن غالب الكشف الجمالي في البلاغة والاسلوبية من علوم اللغة ومستويات الملفوظ اللغوي في النص الأدبي.
- 2- تغطي علوم البلاغة مثلما الاسلوبية اللسانية مستويات التعبير في النص الأدبي، فثمة علوم : المعاني والبيان والبديع في البلاغة . تقابلها المستويات : الصوتي والتركيب والدلالي في الاسلوبية .

3- تمتلك البلاغة مثلما الأسلوبية اطر شاملة للكشف عن الظواهر التعبيرية في النص الادبي .

أوجه الاختلاف :

1- البلاغة منظومة نقدية قديمة تحتكم الى علوم ومعارف قديمة، أما الأسلوبية فتعتمد كشوفات اللسانيات والنقد الحديث .

2- تعتمد البلاغة الرصد والتحديد في النظر الى النص الأدبي، في حين تعتمد الأسلوبية الاستيعاب والتحليل على وفق آليات واجراءات بحثية متسعة .

3- تقتزن البلاغة بأطرمعيارية يجري الاستشهاد لها بنص ادبي، أويحتكم اليها التعبير الادبي، في حين تنحو الأسلوبية منحى وصفيا يعنى بالكشف عن الامكانات التعبيرية للنص، سواء ما رصد منها مسبقا أو ما ابتكره مؤلف النص .

4- تحتكم البلاغة الى منظومة تقويمية منتزعة من نص معياري يجرى تكييف النص على وفقها، في حين تكشف الأسلوبية عن اسرار الظاهرة الإبداعية بعد إثبات إمكاناتها التعبيرية وسماتها الفنية .

5- لا تهمل الأسلوبية الابعاد العاطفية للنص مما يعني استنادها على نحو سائد بعد اللسانيات الى علم النفس، أما البلاغة فتنتطلق من مقررات المنطق مع المعارف اللغوية .

مما تقدم يتبين أن سمات الأسلوبية تتحقق في اطار التطور المنهجي، فضلا عن تطور العلوم الانسانية، فهي تميل الى والصف والتحليل على وفق منظومة شاملة لا تجزئ الظاهرة المدروسة الا على ابراز الامكانات التعبيرية في أفقها العام فضلا عن تناول البعد الفردي للأسلوب الإبداعي، وهذا لا يغمط الاثر الكبير الذي تركته البلاغة باعتبارها منهجا للكشف عن جماليات التعبير.

ولعل البعد التحليلي الغائب في معظم تراثها، لا يجعلنا ننكر الافاق التحليلية التي ابرز من خلالها عبد القاهر الجرجاني امكانات الكشف عن ابداعية النص، يضاف إلى ذلك ما قدمه من اطار منهجي يكشف عن امكانات التعبير من خلال نظرية النظم، في كتابه: (اسرار البلاغة ) و(ودلائل الاعجاز) لا ينكر اتجاهه الذي كرسه السكاكي في كتابه (مفتاح العلوم) .